٥ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

المقدمة

من المستحيل تقريباً في بلد لا يقيد فيه مواليد ولا أموات أن يعين عدد السكان بدقة . وقبل تأليف هذا الكتاب ببضع سنوات عمل إحصاء على أساس عدد البيوت في مصر وافتراض ثمانية أشخاص لكل بيت في العاصمة ، وأربعة أشخاص لكل بيت في الريف . وهذا الإحصاء — على ما أعتقد — يقرب جداً من الحقيقة . ولكن الملاحظة الشخصية والبحث يجعلاني أميل إلى الاعتقاد بأن مدناً كالإسكندرية وبولاق ومصر العتيقة تحوي كل منها خمسة أشخاص على الأقل لكل منزل . أما رشيد فنصفها آهل ونصفها الآخر قفر ، ودمياط المزدحمة بالسكان يجب أن نحسب ستة أشخاص لكل منزل فيها وإلا نقص تقديرنا كثيراً عما يظن أنه عدد سكانها . فإذا أضيف شخص أو شخصان إلى كل منزل في المدن المذكورة ، فلا يحدث مع ذلك إلا فرق ضئيل في إحصاء سكان مصر . ومجموعهم طبقاً لتلك الطريقة الحسابية يبلغ أكثر من مليونين ونصف مليون من الأنفس ؛ ولكن هذا العدد قل فيما بعد . وكان من المحتمل أن يكون من هذا العدد قرابة مليون ومائتي نفس من الذكور ، ثلثهم (٤٠٠٠٠٠) يصلحون للخدمة العسكرية

وقد جنّد محمد علي من هذا العدد الأخير مائتي ألف رجل على الأقل لجيوشه النظامية وللخدمة البحرية . وأفضى خسارة نتجت من إبعاد هؤلاء الرجال عن زوجاتهم ، أو منعهم من الزواج عشر سنين ، لا بد أن تزيد على ثلاثمائة ألف ؛ ولذلك جعلت مجموع السكان أقل من مليونين . أما عدد أفراد الطبقات المهمة فقد كان كما يلي على وجه التقريب :

مصريون (فلاحون وحضريون) ١٫٧٥٠٫٠٠٠

مصريون مسيحيون (أقباط) ١٥٠٫٠٠٠

عثمانيون أو أتراك ١٠٫٠٠٠

سوريون ٥٫٠٠٠

يونانيون ٥٫٠٠٠

أرمن ٢٫٠٠٠

يهود ٥٫٠٠٠

أما بقية السكان من البدو والنوبيين والعبيد والمماليك والفرنج ، فمن المحتمل أن يبلغ عددهم نحو سبعين ألفاً . أما عدد كل طائفة على حدة فلا يمكن معرفته على وجه اليقين . وقد كان عرب الصحراء بين الغربية والشرقية لا يعدون في سكان مصر .

قلت : إن القاهرة يبلغ عدد سكانها مائتين وأربعين ألف نفس تقريباً عند ما وضع هذا الكتاب[1] . ولو كنا قد بنينا حكمنا على أهل هذه المدينة من ازدحام شوارعها المهمة وأسواقها لخدعنا كثيراً . ففي كثير من الحارات والأزقة لا يرى إلا القليل من المارين . كذلك لا يمكننا الحكم من سعة المدينة وضواحيها ، فإن داخل الجدران كثيراً من الأمكنة الخالية ، بعضها يتحول إلى بحيرات أثناء الفيضان[2] . ثم إن الحدائق والمقابر الكثيرة وأحواش المنازل والجوامع تشغل مساحة واسعة . وقد عدت بين سكان القاهرة نحو مائة وتسعين ألفاً من المصريين المسلمين ،

---

(١) وصل مجموع سكان القاهرة إلى هذا العدد ، بعد أن كان نحو ٢٠٠٫٠٠٠ منذ ثلاث سنوات أو أربع . ومنذ هذا الأحصاء أهلك وباء سنة ١٨٣٥ ما لا يقل عن ثلث السكان ، كما ذكر قبلا ، ولكن سرعان ما سد هذا النقص من الريف

(٢) وقد ردمت أكبر هذه البرك ، وكانت تعرف ببركة الأزبكية (ولا زال مكانها يسمى بهذا الاسم) ، وزرعت أشجاراً بعد سنوات قليلة من وضع هذا الكتاب

وحوالى عشرة آلاف من الأقباط وثلاثة آلاف أو أربعة آلاف من اليهود ، والبقية أجانب من بلدان مختلفة[1]

ويرجح أن سكان مصر فى عصور الفراعنة كان عددهم ستة ملايين أو سبعة[2] . ولو أن شيئاً من محصول الأرض فى العصر الحاضر لم يصدّر ، لمال هذا المحصول أربعة ملايين نفس . وإذا كانت كل الأرض الصالحة للزراعة تزرع ، لكفى المحصول ثمانية مليون ، وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه مصر فى أغزر السنين فيضاناً . ولذلك فإنى أعتقد أن المصريين القدماء فى الوقت الذى كانت فيه الزراعة فى حالة ازدهار كان عددهم كما قررت سابقاً . كما أنه من المفروض أن عددهم لم يكن يزيد على نصفهم إلا بقليل فى عصر البطالسة والعصور التالية ، عندما كانت تصدّر كميات كبيرة من الحبوب سنوياً[3] . وهذا الإحصاء يتفق مع ماقاله ديودور الصيقلى من أن مصر بلغ عدد سكانها فى أيام الملوك الأقدمين سبعة ملايين ، بينما فى عصره لم يقلوا عن ثلاثة ملايين

ومن تأمل فى سياسة محمد على لا يسعه إلا أن يأسف للفرق بين حالة مصر تحت حكمه وبين ما كان يجب أن تكون ، إذ لم يزد عدد سكانها بكثير عن ربع العدد الذى كان فى إمكانها إعالته .

ولقد كان فى استطاعة الماهل العظيم أن ينفع شعبه أجزل النفع لو أنه بدلا من إفقار الفلاحين بنزع الأراضى الزراعية واحتكار المحصولات القيمة ، واستخدام كفاءة السكان فى إرضاء طموحه وتحقيق فتوحه ، أو فى منافسته الصناعة الأوربية على غير طائل

كان قد وجه عنايته إلى مساعدة الطبيعة فى أن يجعل مصر بلداً زراعياً على الأخص ، فقد كان يكفى محصول قطنها وحده ، بل وفيض ، للحصول على كل منتجات المصانع الأجنبية وكل المحصولات الطبيعية التى تتطلبها حاجة السكان من البلاد الأجنبية[1]

الفصل الأول

مميزات المصريين المسلمين وعاداتهم

يؤلف المسلمون العربيو الأصل غالبية سكان مصر منذ قرون . وقد أحدث ذلك انقلاباً فى اللغة والقوانين والشمائل العامة ، وأصبحت العاصمة المصرية أعظم قاعدة للمعارف والفنون العربية . وسيخصص لوصف هذا الشعب — وعلى الأخص الطبقتان الوسطى والعليا فى القاهرة — أكبر جزء من هذا الكتاب

ويلاحظ أن شمائل المصريين وعاداتهم تثير الاهتمام بنوع خاص ، لأنها مزيج من تلك الشمائل والعادات التى تسود الجزيرة العربية وسورية وشمال أفريقية كله وتركية إلى حد بعيد . وليس فى العالم بلد كمصر يمكننا أن نحصل فيه على معرفة تامة بأكثر طبقات العرب تمدناً

ويظهر من الإحصائيات الواردة فى مقدمة هذا الكتاب أن المصريين المسلمين — أو المصريين العرب — يؤلفون تقريباً أربعة أخماس سكان العاصمة ، وسبعة أثمان سكان مصر كلها

والمصريون المسلمون من جنس خليط انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر فى عصور مختلفة ، بعيد الفتح . وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولاً قبائل نجوب الصحراء ، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا ، ثم أصهروا إلى الأقباط الذين أصبحوا بالإسلام آمنين ، فأدّى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه بقدماء المصريين الذين ينتمون إلى الجنس « القوقازى » مع قرابتهم

(١) يتألف ثلث سكان القاهرة من الذكور البالغين . وقد أحصيت من هذا العدد حوالى ٣٠٫٠٠٠ تاجراً من صغار أصحاب الحوانيت والصناع ، و٢٠٫٠٠٠ من الخدم الذكور و١٥٫٠٠٠ من العمال والحمالين الخ . أما البقية فكونة غالبا من خدم الحكومة المدنيين والحربيين

(٢) أنا لا أعتمد كثيرا على أقوال المؤلفين القدماء فى هذا الموضوع .

(٣) وقد لمح لى البعض أنه بتصدير الحبوب ، لستورد أشياء ذات قيمة مساوية ؛ وإن تصدير الحبوب أو أي شيء آخر ينعش الصناعة وينشط السكان . ولكن أى شيء يمكن استيراده ليقوم بالغذاء اللازم لشعب هذه يستهلك أكثر من محصول أرضه

(١) فى ١٨٣٥ شحن من الاسكندريه أكثر من ١٥٠٫٠٠٠ بالة قطن ، وكان ما دفعه التجار يزيد على ٧٠٠٫٠٠٠ . أما الكمية المصدرة فى العام الماضى فكانت ٣٤٫٠٠٠ بالة وهى أقل من المعتاد بكثير

إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة ، وهذا الشبه يبدو تاماً فى عدة أفراد منهم على الجملة ، وعلى الأخص فى القبط والنوبيين ، وهو فى مسلمى مصر الوسطى والعليا أكثر شيوعاً ووضوحاً ، ولكنهم مع ذلك ليسوا أقل عروبة من أهل الحضر فى الجزيرة ذاتها ، إذ فشت فيهم منذ القدم عادة اقتناء الجوارى من قبائل الجلا Galla والأحباش ، إما للزواج وإما للتسرى . ولذلك كان عرب المدن الآن يشبهون الجلا والأحباش بقدر ما يشبهون البدو . وهذا — على الأقل — هو الحال فى مدن الإقليم الجنوبى الغربى من بلاد العرب ؛ أما الجهات الجنوبية ، فالحضريون فيها أكثر اختلاطاً بالهنود وأجناس الملايا وبالإفريقيين كذلك . فالمصريون عامة والعرب كذلك — ولو على درجة أقل — ينزعون بعرق إلى أهل أفريقيا الأصليين . ويلاحظ أن لفظ « العرب »[1] يطلقه سكان البلاد العربية الآن على البدو فى مجموعهم ، ويطلقون كلمة « العربان » على أهل القبيلة أو على القليل منهم ، أما الفرد فيسمى « بدوياً » . وقد زال التميز بين القبائل تقريباً فى العاصمة وفى غيرها من المدن المصرية ؛ ولكنه لا يزال باقياً بين الفلاحين الذين حافظوا على عادات بدوية كثيرة سأتكلم عنها فيما بعد . وفى بقاع مختلفة من مصر عشائر تنحدر من العرب الأولين الذين يترفعون عن التزوج ممن هن أقل منهم جنساً . وهؤلاء يصعب بل يستحيل تمييزهم من قبائل صحراء الجزيرة العربية . ومسلمو القاهرة الوطنيون يسمون أنفسهم عادة : « المصريين » و « أولاد مصر » أو « أهل مصر » و « أولاد البلد » ؛ وآخرتلك العبارات الثلاث أكثرها شيوعاً فى المدينة نفسها . أما أهل الريف ، فيسمون بالفلاحين (أو الزارعين) وكثيراً ما يطلق الأتراك على المصريين لفظ الفلاحين ، ويقصدون به معنى الغلظة والجفاء ، أو ينبذونهم بأهل فرعون إهانة لهم ، فيرد عليهم المصريون كلما اجترأوا على ذلك بتسميتهم أهل نمرود

ويتراوح طول المصريين بين خمس أقدام وثمانى بوصات ، وخمس أقدام وتسع بوصات ، وأغلب الأطفال تحت سن التاسعة أو العاشرة دقاق الأطراف ضخام البطون ، ولكن ... سرعان ما تتحسن أشكالهم كلما تدرجوا فى النمو ، فلا يبلغون أشدهم حتى تتناسب أعضاؤهم بشكل ظاهر . فالرجال أقوياء مفتولو العضلات ، والنساء جميلات التكوين بدينات من غير إفراط . ولم أر فى المصريين بدانة إلا فى الذين أخلدوا إلى حياة البطالة فى العاصمة وفى غيرها من المدن

(يتبع)

عبد الحميد لطفى السحار

(١) هذا اللفظ كان يستعمل أولا للاشارة إلى العرب الحضريين ، بينما كان العرب الرحل يسمون « أعراباً » ، وعرب المدن يطلقون الآن على أنفسهم « أولاد العرب »

إعلان

يعلن مجلس مديرية الشرقية حاجته إلى طبيبين بمرتب ١٢ جنيهاً شهرياً للوحدات الصحية المتنقلة . فمن يرغب الالتحاق بإحدى هاتين الوظيفتين أن يقدم طلباً لمجلس مديرية الشرقية على الاستمارة رقم ١٦٧ ع ح فى ميعاد لا يتجاوز ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤١ مصحوباً بجميع المؤهلات وسابق الخدمة .

٨٥٧٠

القوات المرابطة

تقبل العطاءات برياسة القوات المرابطة بشارع اسماعيل باشا سرى رقم ٢٤ بالمنيرة بمصر لغاية ظهر يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤١ عن توريد ملابس ومهمات وصنادل جلد وأدوات نظافة وحصير سمار . ثمن النسخة من الشروط ٦٠ مليما ويقدم الطلب على ورقة دمغة

٨٥٦٥